مَعْنَىٰ ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾

إِنَّ لَفْظَ ﴿بِالصَّبْرِ﴾ أَيُّ النَّاشِىءِ عَنْ زَكَاةِ النَّفْسِ عَلَىٰ العَمَلِ بِطَاعَةِ الله مِنْ إِحْقَاقِ الحَقِّ وَإِبْطَالِ البَاطِلِ وَالنَّفْيِ لَهُ وَالمَحْقِ، وَعَلَىٰ مَا يَحْصُلُ بِسَبَبِ ذَلِكَ مِنَ الأَذَىٰ بِاجْتِنَابِ الشُّرُورِ إِلَىٰ المَمَاتِ الَّذِي هُوَ سَبَبٌ مُوَصِّلٌ إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ.

فَكَانَ التَّوَاصِي بِالصَّبْرِ مَعَ التَّوَاصِي بِالحَقِّ مُكَمِّلَيْنِ لِلْقُوَّةِ العَمَلِيَّةِ حَافِظَيْنَ لِـمَا قَبْلَهَا مِنَ العِلْمِيَّةِ، وَذَلِكَ هُوَ حِكْمَةُ العِبَادَاتِ.

فَإِنَّ حِكْمَةَ الشَّيْءِ هِيَ الغَايَةُ وَالفَائِدَةُ المَقْصُودَةُ مِنْهُ، وَهِيَ هَنَا أَمْرَانِ: خَارِجٌ عَنِ العَامِلِ وَهُوَ الجَنَّةُ، وَدَاخِلٌ قَائِمٌ بِهِ وَهُوَ النُّورُ المُقَرِّبُ مِنَ الحَقِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وَاخْتِيرُ التَّعْبِيرُ بِـ(الوَصِيَّةِ) إِشَارَةٌ إِلَىٰ الرِّفْقِ فِي الأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ، وَاسْتِعْمَالِ اللِّينِ بِغَايَةِ الجَهْدِ، وَالصَّبْرُ هُوَ خُلَاصَةُ الإِنْسَانِ وَسِرُّهُ وَصَفَاوَتُهُ وَزُبْدَتُهُ وَعِصَارَتُهُ، الَّذِي لَا يُوصَلُ إِلَيْهِ إِلَّا بِضَغْطِ الإِنْسَانِ لِنَفْسِهِ وَقَسْرِهَا عَلَىٰ أَفْعَالِ الطَّاعَةِ وَقَهْرِهَا عَلَىٰ لُزُومِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ؛ حَتَّىٰ يَصِيرَ الصَّبْرُ لَـهَا بِالتَّدْرِيبِ عَادَةً وَصِنَاعَةً، فَقَدْ عَانَقَ آخِرُهَا أَوَّلَـهَا، وَوَاصَلَ مِفْصَلُهَا مُوصِلَهَا.

❁❁❁❁❁

إِنَّ (الصَّبْرَ) مِنْ أَعْظَمِ خِصَالِ الخَيْرِ الَّتِي حَثَّ اللهُ عَلَيْهَا فِي كِتَابِهِ العَظِيمِ، وَأَمَرَ بِهَا رَسُولُهُ الكَرِيمُ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سُنَّتِهِ المُطَهَّرَةِ، وَقَدْ وَرَدَتْ مَادَّةُ (صَبَرَ) فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ فِي مِائَةٍ وَأَرْبَعَةٍ (١٠٤) مَوَاضِع؛ عَلَىٰ تَنَوُّعٍ فِي مَوَارِدِهَا وَأَسْبَابِ ذِكْرِهَا.

فَقَدْ أَمَرَ اللهُ جَلَّ جَلَالُهُ نَبِيَّهُ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِخُلُقِ الصَّبْرِ؛ فَقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ (النَّحْل/ ١٢٧)،

وقال تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡۚ كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَ مَا يُوعَدُونَ لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّن نَّهَارِۭۚ بَلَٰغٞۚ فَهَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٣٥﴾ (الأَحْقَاف/ ٣٥).

وَأَمَرَ اللهُ بِهِ الْمُؤْمِنِينَ؛ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٢٠٠﴾ (آل عِمْرَان/ ٢٠٠).

وَأَثْنَى عَلَى أَهْلِهِ؛ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ١٧٧﴾ (البَقَرَة/ ١٧٧).

وَأَخْبَرَ بِمَحَبَّتِهِ لِلصَّابِرِينَ؛ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٦﴾ (آل عِمْرَان)، وَمَعِيَّتِهِ لَهُمْ؛ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٤٦﴾ (الأَنْفَال).

وَأَخْبَرَ أَنَّ الصَّبْرَ خَيْرٌ لِأَصْحَابِهِ؛ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ١٢٦﴾ (النَّحْل).

وَوَعَدَهُمْ أَنْ يَجْزِيَهُمْ أَعْلَى وَأَوْفَى وَأَحْسَنَ مِمَّا عَمِلُوهُ؛ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖۗ وَلَنَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٩٦﴾ (النَّحْل)؛ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ ١٠﴾ (الزُّمَر). وَبَشَّرَهُمْ؛ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥﴾ (البَقَرَة)، وَأَخْبَرَ أَنَّ جَزَاءَهُمُ الجَنَّةِ؛ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةٗ وَحَرِيرٗا ١٢﴾ (الإِنْسَان).

وَقَدْ قَرَنَ اللهُ (الصَّبْرَ) بِالقِيَمِ العُلْيَا فِي الإِسْلَامِ، فَقَرَنَهُ بِاليَقِينِ؛ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ٢٤﴾ (السَّجْدَة)، وَقَرَنَهُ بِالتَّوَكُّلِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا

تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾﴾ (العَنْكَبُوت).

وَقَرَنَهُ **بِالتَّقْوَى** في عِدَّةِ آيَاتٍ مِنْهَا: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾ (آل عِمْرَان)، وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾ (آل عِمْرَان)، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾ (يُوسُف/ ٩٠).

وَقَرَنَهُ **بِالصَّلَاةِ** فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾ (البَقَرَة)، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ (البَقَرَة).

وَقَرَنَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الصَّبْرَ **بِالعَمَلِ**؛ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ (هُود).

وَقَرَنَهُ **بِالجِهَادِ**؛ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾ (النَّحْل)، وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾ (مُحَمَّد، ٣١).

وَقَرَنَهُ **بِالِاسْتِغْفَارِ**؛ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾﴾ (غَافِر).

وَقَرَنَهُ **بِالتَّسْبِيحِ**؛ في قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾﴾ (الطُّور)، وَفي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾﴾ (طه).

وَقَرَنَ الصَّبْرَ **بِالحَقِّ**؛ في قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ (سُورَة العَصْر).

وَقَرَنَهُ **بِالرَّحْمَةِ**؛ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾﴾ (البَلَد).

وَقَرَنَهُ **بِالشُّكْرِ** في عِدَّةِ آيَاتٍ؛ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾﴾ (إِبْرَاهِيم).

❁❁❁❁❁❁

وَحَدِيثُ القُرْآنِ عَنِ الصَّبْرِ مُتَنَوِّعٌ وَمُمْتِعٌ مِمَّا يَدُلُّ عَلَىٰ أَهَمِّيَّتِهِ وَمَكَانَتِهِ العَظِيمَةِ، وَكَذَا الشَّأْنُ في السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ؛ فَقَدْ حَثَّ النَّبِيُّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أُمَّتَهُ عَلَىٰ هَذَا الخُلُقِ الكَرِيمِ، وَكَانَتْ سِيرَتُهُ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أُنْمُوذَجًا يُحْتَذَىٰ في التَّخَلُّقِ بِخُلُقِ (**الصَّبْرِ**) بِشَتَّىٰ أَنْوَاعِهِ وَأَعْلَىٰ دَرَجَاتِهِ، وَمَنْ قَرَأَ في سِيرَتِهِ العَمَلِيَّةِ وَسُنَّتِهِ القَوْلِيَّةِ سَيَجِدُ أَنَّ لِلصَّبْرِ شَأْنًا عَظِيمًا.(١)

❁❁❁❁❁❁

وَجَمِيعُ أَقْضِيَةِ اللهِ لِعَبْدِهِ المُؤْمِنِ كُلُّهَا خَيْرٌ لَهُ إِذَا صَبَرَ عَلَىٰ مَكْرُوهِهَا وَشَكَرَ لِمَحْبُوبِهَا، بَلْ هَذَا دَاخِلٌ في مُسَمَّىٰ (الإِيمَانِ)؛ فَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ:(٢) «**عَجَبًا لِأَمْرِ**

---

(١) انْظُرْ: مُقَدِّمَةَ مُحَمَّدِ بْنِ خَلِيفَةَ بْنِ عَلِيٍّ التَّمِيمِيِّ لِتَحْقِيقِهِ "قَاعِدَة في الصَّبْرِ" لِابْنِ تَيْمِيَّةَ.

(٢) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (ح ٢٩٩٩)، وَأَحْمَدُ (١/ ١٧٣)، وَالدَّارِمِيُّ (٢/ ٣١٨).

الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إِلاَّ لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ؛ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ؛ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ».

وَقَالَ **ابْنُ مَسْعُودٍ** رضي الله عنه: "الصَّبْرُ نِصْفُ الإِيمَانِ، وَاليَقِينُ الإِيمَانُ كُلُّهُ". وَفِي رِوَايَةٍ: "الإِيمَانُ نِصْفَانِ: فَنِصْفٌ فِي الصَّبْرِ، وَنِصْفٌ فِي الشُّكْرِ".

❁❁❁❁❁❁

فَـ**(الصَّبْرُ) ثَلَاثَةُ أَقْسَامٍ:**

النَّوْعُ الأَوَّلُ: صَبْرٌ عَلَى الطَّاعَةِ حَتَّى يَفْعَلَهَا.

النَّوْعُ الثَّانِي: صَبْرٌ عَنِ المَنْهِيِ عَنْهُ حَتَّى لَا يَفْعَلَهُ؛ قَالَ **سَهْلُ بْنُ عَبْدِ الله التُّسْتَرِيُّ**:(١) "لَيْسَ مَنْ عَمِلَ بِطَاعَةِ الله صَارَ حَبِيبَ الله، وَلَكِنْ مَنِ اجْتَنَبَ مَا نَهَى اللهُ عَنْهُ صَارَ حَبِيبَ الله، وَلَا يَجْتَنِبُ الآثَامَ إِلَّا صِدِّيقٌ مُقَرَّبٌ، وَأَمَّا أَعْمَالُ البِرِّ يَعْمَلُهَا البَرُّ وَالفَاجِرُ".

النَّوْعُ الثَّالِثُ: الصَّبْرُ عَلَى مَا يُصِيبُهُ بِغَيْرِ اخْتِيَارِهِ مِنَ المَصَائِبِ؛ وَهِيَ **نَوْعَانِ**:

نَوْعٌ لَا اخْتِيَارَ لِلْخَلْقِ فِيهِ؛ كَالأَمْرَاضِ وَغَيْرِهَا مِنَ المَصَائِبِ الَّتِي لَا مَدْخَلَ لِلنَّاسِ فِيهَا وَالَّتِي يَشْهَدُ العَبْدُ فِيهَا قَضَاءَ الله وَقَدَرَهُ، فَيَصْبِرُ إِمَّا اضْطِرَارًا وَإِمَّا اخْتِيَارًا، فَإِنْ تَفَكَّرَ فِيهَا بِفَتْحٍ مِنَ الله عَلَى قَلْبِهِ انْتَقَلَ مِنَ (الصَّبْرِ عَلَيْهَا) إِلَى (الشُّكْرِ لَهَا وَالرِّضَا بِهَا).

النَّوْعُ **الثَّانِي**: أَنْ يَحْصُلَ لَهُ بِفِعْلِ النَّاسِ فِي مَالِهِ أَوْ عِرْضِهِ أَوْ نَفْسِهِ.

فَهَذَا النَّوْعُ يَصْعُبُ الصَّبْرُ عَلَيْهِ جِدًّا؛ لأَنَّ النَّفْسَ تَسْتَشْعِرُ المُؤْذِي لَهَا، وَهِيَ تَكْرَهُ الغَلَبَةَ؛ فَتَطْلُبُ الِانْتِقَامَ، فَلَا يَصْبِرُ عَلَى هَذَا النَّوْعِ إِلَّا الأَنْبِيَاءُ وَالصِّدِّيقُونَ، وَكَانَ نَبِيُّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أُوذِيَ يَقُولُ:(٢) «**يَرْحَمُ اللهُ مُوسَى! قَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ**».

---

(١) رَوَاهُ البُخَارِيُّ (ح ٣٤٠٥)، وَمُسْلِمٌ (٣/ ١٠٩). رَوَاهُ أَبُو نُعَيْمٍ فِي "حِلْيَة الأَوْلِيَاء" (١٠/ ١٩٧) بِإِسْنَادِهِ عن سَهْلِ بْنِ عَبْدِ الله التُّسْتَرِيِّ ضِمْنَ كَلَامٍ لَهُ طَوِيلٌ.

(٢) رَوَاهُ البُخَارِيُّ (ح ٣٤٠٥)، وَمُسْلِمٌ (٣/ ١٠٩).

وَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ يَحْكِي نَبِيًّا مِنَ الأَنْبِيَاءِ، ضَرَبَهُ قَوْمُهُ فَأَدْمَوْهُ، وَهُوَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ؛ وَيَقُولُ:(١) «**اللَّهُمَّ! اغْفِرْ لِقَوْمِي؛ فَإِنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ**». فَجَمَعَ فِي هَذَا ثَلَاثَةَ أُمُورٍ: العَفْوَ عَنْهُمْ، وَالِاسْتِغْفَارَ لَهُمْ، وَالِاعْتِذَارَ عَنْهُمْ بِأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ.

وَهَذَا النَّوْعُ مِنَ (الصَّبْرِ) عَاقِبَتُهُ النَّصْرُ وَالعِزُّ وَالسُّرُورُ وَالأَمْنُ وَالقُوَّةُ فِي ذَاتِ اللهِ، وَزِيَادَةُ مَحَبَّةِ اللهِ وَمَحَبَّةِ النَّاسِ لَهُ، وَزِيَادَةُ العِلْمِ؛ وَلِهَذَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ (السَّجْدَة)، فَبِالصَّبْرِ وَاليَقِينِ تُنَالُ الإِمَامَةُ فِي الدِّينِ، فَإِذَا انْضَافَ إِلَى هَذَا الصَّبْرِ قُوَّةُ اليَقِينِ وَالإِيمَانِ تُرَقِّي العَبْدَ فِي دَرَجَاتِ السَّعَادَةِ بِفَضْلِ اللهِ، وَذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ.

وَلِهَذَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا﴾ يَعْنِي: الأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ مِثْلُ العَفْوِ وَالصَّفْحِ؛ ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ (فُصِّلَت) نَصِيبٌ وَافِرٌ؛ وَهِيَ الجَنَّةُ.

❁❁❁❁❁

وَيُعِينُ العَبْدَ عَلَى هَذَا الصَّبْرِ عِدَّةُ أَشْيَاءَ:

أَحَدُهَا: أَنْ يَشْهَدَ أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ، فَمَا شَاءَ اللهُ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، فَلَا يَتَحَرَّكُ فِي العَالَمِ العُلْوِيِّ وَالسُّفْلِيِّ ذَرَّةٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ، فَانْظُرْ إِلَى الَّذِي سَلَّطَهُمْ عَلَيْكَ، وَلَا تَنْظُرْ إِلَى فِعْلِهِمْ بِكَ، تَسْتَرِيحُ مِنَ الهَمِّ وَالغَمِّ وَالحَزَنِ.

---

(١) رَوَاهُ البُخَارِيُّ (ح ٣٤٧٧)، وَمُسْلِمٌ (٥/ ١٧٩).

الثَّانِي: أَنْ يَشْهَدَ ذُنُوبَهُ، وَأَنَّ اللهَ إِنَّمَا سَلَّطَهُمْ عَلَيْهِ بِذَنْبِهِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ (الشُّورَى)، فَيَشْتَغِلُ بِالتَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ مِنَ الذُّنُوبِ، وَيَرْجِعُ إِلَىٰ نَفْسِهِ بِاللَّوْمِ.

الثَّالِثُ: أَنْ يَشْهَدَ العَبْدُ حُسْنَ الثَّوَابِ الَّذِي وَعَدَهُ اللهُ لِمَنْ عَفَىٰ وَصَبَرَ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَاۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ (الشُّورَى).

وَلَمَّا كَانَ النَّاسُ عِنْدَ مُقَابَلَةِ الأَذَىٰ ثَلَاثَةَ أَقْسَامٍ: ظَالِمٌ يَأْخُذُ فَوْقَ حَقِّهِ، وَمُقْتَصِدٌ يَأْخُذُ بِقَدْرِ حَقِّهِ، وَمُحْسِنٌ يَعْفُو وَيَتْرُكُ حَقَّهُ. ذَكَرَ الأَقْسَامَ الثَّلَاثَةَ فِي هَذِهِ الآيَةِ؛ فَأَوَّلُهَا لِلْمُقْتَصِدِينَ، وَوَسَطُهَا لِلسَّابِقِينَ، وَآخِرُهَا لِلظَّالِمِينَ.

وَإِذَا شَهِدَ فَوْتَ الأَجْرِ بِالِانْتِقَامِ وَالِاسْتِيفَاءِ؛ سَهُلَ عَلَيْهِ الصَّبْرُ وَالعَفْوُ.

الرَّابِعُ: أَنْ يَشْهَدَ أَنَّهُ إِذَا عَفَىٰ وَأَحْسَنَ أَوْرَثَهُ ذَلِكَ مِنْ سَلَامَةِ القَلْبِ لِإِخْوَانِهِ، وَنَقَائِهِ مِنَ الغِشِّ، وَالغِلِّ، وَطَلَبِ الِانْتِقَامِ، وَإِرَادَةِ الشَّرِّ، وَحَصَلَ لَهُ مِنْ حَلَاوَةِ العَفْوِ مَا يَزِيدُ لَذَّتَهُ وَمَنْفَعَتَهُ عَاجِلًا وَآجِلًا عَلَى المَنْفَعَةِ الحَاصِلَةِ لَهُ بِالِانْتِقَامِ أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً.

الخَامِسُ: أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهُ مَا انْتَقَمَ أَحَدٌ قَطُّ لِنَفْسِهِ إِلَّا أَوْرَثَهُ ذَلِكَ ذُلًّا يَجِدُهُ فِي نَفْسِهِ، فَإِذَا عَفَىٰ أَعَزَّهُ اللهُ. وَهَذَا مِمَّا أَخْبَرَ بِهِ الصَّادِقُ المَصْدُوقُ؛ حَيْثُ يَقُولُ:(١) «**مَا زَادَ اللهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا**». فَالعِزُّ الحَاصِلُ لَهُ بِالِانْتِقَامِ عِزٌّ فِي الظَّاهِرِ وَهُوَ يُورِثُ فِي البَاطِنِ ذُلًّا، وَالعَفْوُ ذُلٌّ فِي البَاطِنِ وَهُوَ يُورِثُ العِزَّ بَاطِنًا وَظَاهِرًا.

السَّادِسُ -وَهِيَ مِنْ أَعْظَمِ الفَوَائِدِ-: أَنْ يَشْهَدَ أَنَّ الجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ العَمَلِ، وَأَنَّهُ نَفْسَهُ ظَالِمٌ مُذْنِبٌ، وَأَنَّ مَنْ عَفَىٰ عَنِ النَّاسِ عَفَىٰ اللهُ عَنْهُ، وَمَنْ غَفَرَ غَفَرَ اللهُ لَهُ، فَإِذَا شَهِدَ أَنَّ

(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٨/ ٢٠).

عَفْوَهُ عَنْهُمْ وَصَفْحَهُ وَإِحْسَانَهُ مَعَ إِسَاءَتِهِمْ إِلَيْهِ؛ سَبَبٌ لأَنْ يَجْزِيَهُ اللهُ كَذَلِكَ مِنْ جِنْسِ عَمَلِهِ فَيَعْفُو عَنْهُ وَيَصْفَحُ وَيُحْسِنُ إِلَيْهِ عَلَىٰ ذُنُوبِهِ.

السَّابِعُ: أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهُ إِذَا اشْتَغَلَتْ نَفْسُهُ بِالاِنْتِقَامِ وَطَلَبِ الْمُقَابَلَةِ ضَاعَ عَلَيْهِ زَمَانُهُ، وَتَفَرَّقَ عَلَيْهِ قَلْبُهُ، وَفَاتَهُ مِنْ مَصَالِحِهِ، مَا لَا يُمْكِنُ اسْتِدْرَاكُهُ، وَلَعَلَّ هَذَا يَكُونُ أَعْظَمَ عَلَيْهِ مِنَ الْمُصِيبَةِ الَّتِي نَالَتْهُ مِنْ جِهَتِهِمْ، فَإِذَا عَفَىٰ وَصَفَحَ فَرَّغَ قَلْبَهُ وَجِسْمَهُ لِمَصَالِحِهِ الَّتِي هِيَ أَهَمُّ عِنْدَهُ مِنَ الاِنْتِقَامِ.

الثَّامِنُ: أَنَّ انْتِقَامَهُ وَاسْتِيفَاءَهُ وَانْتِصَارَهُ لِنَفْسِهِ وَانْتِقَامَهُ، لَـهَا، مَعَ أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَيْرَ خَلْقِ الله وَأَكْرَمَهُمْ عَلَىٰ الله لَمْ يَكُنْ يَنْتَقِمُ لِنَفْسِهِ؛ فَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا؛ أَنَّهَا قَالَتْ: «مَا خُيِّرَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا أَخَذَ أَيْسَرَهُمَا، مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا، فَإِنْ كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ، وَمَا انْتَقَمَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِنَفْسِهِ إِلَّا أَنْ تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ الله؛ فَيَنْتَقِمَ لله بِهَا»، مَعَ أَنَّ أَذَىٰ رَسُولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَذًىٰ لله وَيَتَعَلَّقُ بِهِ حُقُوقَ الدِّينِ، وَنَفْسُهُ أَشْرَفُ الأَنْفُسِ، وَأَزْكَاهَا، وَأَبَرُّهَا وَأَبْعَدَهَا مِنْ كُلِّ خُلُقٍ مَذْمُومٍ، وَأَحَقُّهَا بِكُلِّ خُلُقٍ جَمِيلٍ؛ فَكَيْفَ يَنْتَقِمُ أَحَدُنَا لِنَفْسِهِ الَّتِي هُوَ أَعْلَمُ بِهَا وَبِمَا فِيهَا مِنَ الْعُيُوبِ وَالشُّرُورِ؟

التَّاسِعُ: إِنْ أُوذِيَ عَلَىٰ مَا فَعَلَهُ لله (وَفِي سَبِيلِهِ) أَوْ عَلَىٰ مَا أَمَرَهُ بِهِ مِنْ طَاعَتِهِ وَنَهَىٰ عَنْهُ مِنْ مَعْصِيَتِهِ وَجَبَ عَلَيْهِ الصَّبْرُ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ الاِنْتِقَامُ، فَإِنَّهُ قَدْ أُوذِيَ فِي الله، فَأَجْرُهُ عَلَىٰ الله.

وَإِنْ كَانَ قَدْ أُوذِيَ عَلَىٰ مَعْصِيَةٍ؛ فَلْيَرْجِعْ بِاللَّوْمِ عَلَىٰ نَفْسِهِ، وَيَكُونُ فِي لَوْمِهِ لَـهَا شُغْلٌ عَنْ لَوْمِهِ لِـمَنْ آذَاهُ.

وَإِنْ كَانَ قَدْ أُوذِيَ عَلَىٰ حَظٍّ مِنَ الحُظُوظِ؛ فَلْيُوَطِّنْ نَفْسَهُ عَلَىٰ الصَّبْرِ، وَمَعْلُومٌ عِنْدَ النَّاسِ أَنَّ مَنْ صَدَقَ فِي طَلَبِ شَيْءٍ مِنَ الأَشْيَاءِ بَذَلَ مِنَ الصَّبْرِ فِي تَحْصِيلِهِ بِقَدْرِ صِدْقِهِ فِي طَلَبِهِ.

العَاشِرُ: أَنْ يَشْهَدَ مَعِيَّةَ اللهِ مَعَهُ إِذَا صَبَرَ، وَمَحَبَّةَ اللهِ لَهُ وَرِضَاهُ؛ قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٤٦﴾ (الأنفال)، وَقَالَ: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٦﴾ (آل عِمْرَان).

الحَادِي **عَشَرَ**: أَنْ يَشْهَدَ أَنَّ الصَّبْرَ نِصْفُ الإِيمَانِ، فَلَا يُبَدِّلُ مِنْ إِيمَانِهِ جُزْءًا فِي نُصْرَةِ نَفْسِهِ، فَإِنْ صَبَرَ فَقَدْ أَحْرَزَ إِيمَانَهُ وَصَانَهُ مِنَ النَّقْصِ، وَاللهُ تَعَالَىٰ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا.

الثَّانِي عَشَرَ: أَنْ يَشْهَدَ أَنَّ صَبْرَهُ حُكْمٌ مِنْهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ، وَقَهْرٌ لَهَا، وَغَلَبَةٌ لَهَا، فَمَتَىٰ كَانَتِ النَّفْسُ مَقْهُورَةً مَعَهُ مَغْلُوبَةً؛ لَمْ تَطْمَعْ فِي اسْتِرْقَاقِهِ وَأَسْرِهِ وَإِلْقَائِهِ فِي المَهَالِكِ، وَمَتَىٰ كَانَ مُطِيعًا لَهَا سَامِعًا مِنْهَا مَقْهُورًا مَعَهَا؛ لَمْ تَزَلْ بِهِ حَتَّىٰ تُهْلِكَهُ، أَوْ تَتَدَارَكَهُ رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ.

الثَّالِثُ عَشَرَ: أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهُ إِنْ صَبَرَ فَاللهُ نَاصِرُهُ وَلَابُدَّ، فَإِنَّ اللهَ وَكِيلُ مَنْ صَبَرَ وَأَحَالَ ظَالِمَهُ عَلَيْهِ، وَمَنِ انْتَصَرَ بِنَفْسِهِ لِنَفْسِهِ وَكَّلَهُ اللهُ إِلَىٰ نَفْسِهِ؛ فَكَانَ هُوَ النَّاصِرُ لَهَا. فَأَيْنَ مَنْ نَاصِرُهُ اللهُ خَيْرُ النَّاصِرِينَ، إِلَىٰ مَنْ نَاصِرُهُ نَفْسُهُ أَعْجَزُ النَّاصِرِينَ وَأَضْعَفُهُ؟

الرَّابِعُ عَشَرَ: أَنَّ صَبْرَهُ عَلَىٰ مَنْ آذَاهُ وَاحْتِمَالُهُ لَهُ يُوجِبُ رُجُوعَ خَصْمِهِ عَنْ ظُلْمِهِ وَنَدَامَتَهُ وَاعْتِذَارَهُ، وَلَوْمَ النَّاسِ لَهُ؛ فَيَعُودُ بَعْدَ إِذَائِهِ لَهُ مُسْتَحْيِيًا مِنْهُ، نَادِمًا عَلَىٰ مَا فَعَلَهُ، بَلْ يَصِيرُ مُوَالِيًا لَهُ؛ وَهَذَا مَعْنَىٰ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ٣٤ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ٣٥﴾ (فُصِّلَت).

الخَامِسُ عَشْرَ: رُبَّمَا كَانَ انْتِقَامُهُ وَمُقَابَلَتُهُ سَبَبًا لِزِيَادَةِ شَرِّ خَصْمِهِ وَقُوَّةِ نَفْسِهِ وَفِكْرَتِهِ فِي أَنْوَاعِ الأَذَىٰ الَّتِي يُوصِلُهَا إِلَيْهِ؛ كَمَا هُوَ الْمُشَاهَدُ، فَإِذَا صَبَرَ وَعَفَىٰ أَمِنَ مِنْ هَذَا الضَّرَرِ. وَكَمْ جَلَبَ الِانْتِقَامُ وَالْمُقَابَلَةُ مِنْ شَرٍّ عَجَزَ صَاحِبُهُ عَنْ دَفْعِهِ.

السَّادِسُ عَشْرَ: أَنَّ مَنِ اعْتَادَ الِانْتِقَامَ وَلَمْ يَصْبِرْ؛ لَابُدَّ أَنْ يَقَعَ فِي الظُّلْمِ، فَإِنَّ النَّفْسَ لَا تَقْتَصِرُ عَلَىٰ قَدْرِ العَدْلِ الوَاجِبِ لَـهَا، فَإِنَّ الغَضَبَ يُخْرِجُ بِصَاحِبِهِ إِلَىٰ حَدٍّ لَا يَعْقِلُ مَا يَقُولُ وَمَا يَفْعَلُ، فَإِذَا انْقَلَبَ ظَالِمًا فَلْيَنْتَظِرِ المَقْتَ وَالعُقُوبَةَ.

السَّابِعُ عَشْرَ: أَنَّ هَذِهِ المَظْلَمَةَ الَّتِي قَدْ ظُلِمَهَا هِيَ سَبَبٌ؛ إِمَّا لِتَكْفِيرِ سَيِّئَةٍ، أَوْ رَفْعِ دَرَجَةٍ، فَإِذَا انْتَقَمَ وَلَمْ يَصْبِرْ لَمْ تَكُنْ مُكَفِّرَةً لِسَيِّئَتِهِ وَلَا رَافِعَةً لِدَرَجَتِهِ.

الثَّامِنُ عَشْرَ: أَنَّ عَفْوَهُ وَصَبْرَهُ مِنْ أَكْبَرِ الجُنْدِ لَهُ عَلَىٰ خَصْمِهِ، فَإِنَّ مَنْ صَبَرَ وَعَفَا كَانَ صَبْرُهُ وَعَفْوُهُ مُوجِبًا لِذُلِّ عَدُوِّهِ، وَخَوْفِهِ وَخَشْيَتِهِ مِنْهُ، وَمِنَ النَّاسِ، فَإِنَّ النَّاسَ لَا يَسْكُتُونَ عَنْ خَصْمِهِ وَإِنْ سَكَتَ هُوَ، فَإِذَا انْتَقَمَ زَالَ ذَلِكَ كُلُّهُ.

التَّاسِعُ عَشْرَ: أَنَّهُ إِذَا عَفَىٰ عَنْ خَصْمِهِ؛ اسْتَشْعَرَتْ نَفْسُ خَصْمِهِ أَنَّهُ فَوْقَهُ، وَأَنَّهُ قَدْ رَبَحَ عَلَيْهِ، فَلَا يَزَالُ يَرَىٰ نَفْسَهُ دُونَهُ وَكَفَىٰ بِهَذَا فَضْلًا وَشَرَفًا لِلْعَفْوِ.

العِشْرُونَ: أَنَّهُ إِذَا عَفَا وَصَفَحَ كَانَتْ هَذِهِ حَسَنَةً، فَتُوَلِّدُ لَهُ حَسَنَةً أُخْرَىٰ، وَتِلْكَ الأُخْرَىٰ تُوَلِّدُ أُخْرَىٰ، وَهَلُمَّ جَرّا، فَلَا تَزَالُ حَسَنَاتُهُ فِي مَزِيدٍ، فَإِنَّ مِنْ ثَوَابِ الحَسَنَةِ الحَسَنَةَ، كَمَا أَنَّ مِنْ عِقَابِ السَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ بَعْدَهَا، وَرُبَّمَا كَانَ هَذَا سَبَبًا لِنَجَاتِهِ وَسَعَادَتِهِ الأَبَدِيَّةِ، فَإِذَا انْتَقَمَ وَانْتَصَرَ زَالَ ذَلِكَ.[1]

وَ(**التَّوَاصِي بِالصَّبْرِ**) كَذَلِكَ ضَرُورَةٌ؛ فَالقِيَامُ عَلَىٰ الإِيمَانِ وَالعَمَلِ الصَّالِحِ، وَحِرَاسَةِ الحَقِّ وَالعَدْلِ مِنْ أَعْسَرِ مَا يُوَاجِهُ الفَرْدَ وَالجَمَاعَةَ.

---

(١) انْظُرْ: "قَاعِدَة فِي الصَّبْرِ" لِابْنِ تَيْمِيَّةَ، تَحْقِيق: مُحَمَّد بْن خَلِيفَةَ بْنِ عَلِيٍّ التَّمِيمِيّ، بِاخْتِصَارٍ وَتَصَرُّفٍ.

وَ(الحَقُّ) ثَقِيلٌ، وَالمِحَنُ تُلَازِمُهُ؛ فَلِذَلِكَ قَرَنَ بِهِ التَّوَاصِي بِالصَّبْرِ.

وَلَا بُدَّ مِنَ (الصَّبْرِ) عَلَىٰ: جِهَادِ النَّفْسِ، وَجِهَادِ الغَيْرِ، وَالصَّبْرِ عَلَىٰ الأَذَىٰ وَالمَشَقَّةِ وَالبَلَاءِ.

لَا بُدَّ مِنَ (الصَّبْرِ) عَلَىٰ تَبَجُّحِ البَاطِلِ وَانْتِفَاشِ الشَّرِّ .. وَالصَّبْرِ عَلَىٰ طُولِ الطَّرِيقِ وَبُطْءِ المَرَاحِلِ، وَانْطِمَاسِ المَعَالِمِ، وَبُعْدِ النِّهَايَةِ!

❁❁❁❁❁❁❁

وَ(التَّوَاصِي بِالصَّبْرِ) يُضَاعِفُ المَقْدِرَةَ؛ بِمَا يَبْعَثُهُ مِنْ إِحْسَاسٍ بِوِحْدَةِ الهَدَفِ، وَوِحْدَةِ المُتَّجَهِ، وَتَسَانُدِ الجَمِيعِ، وَتَزَوُّدُهُمْ بِالحُبِّ وَالعَزْمِ وَالإِصْرَارِ .. إِلَىٰ آخِرِ مَا يُثِيرُهُ مِنْ مَعَانِي الجَمَاعَةِ (وَالأُمَّةِ) الَّتِي لَا تَعِيشُ حَقِيقَةَ الإِسْلَامِ إِلَّا فِي جَوِّهَا، وَلَا تَبْرُزُ إِلَّا مِنْ خِلَالِهَا .. وَإِلَّا فَهُوَ الخُسْرَانُ وَالضَّيَاعُ.

وَفِي جَعْلِ (التَّوَاصِي بِالصَّبْرِ) قَرِينًا لِلتَّوَاصِي بِالحَقِّ؛ دَلِيلٌ عَلَىٰ عَظِيمِ قَدْرِهِ، وَفَخَامَةِ شَرَفِهِ، وَمَزِيدِ ثَوَابِ الصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا يَحِقُّ الصَّبْرُ عَلَيْهِ؛ وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ (البَقَرَة/ ١٥٣).

وَأَيْضًا (التَّوَاصِي بِالصَّبْرِ) مِمَّا يَنْدَرِجُ تَحْتَ (التَّوَاصِي بِالحَقِّ)، فَهُوَ مِنْ بَابِ عَطْفِ الخَاصِّ عَلَىٰ الْعَامِّ أَيْضًا، فَإِفْرَادُهُ بِالذِّكْرِ وَتَخْصِيصُهُ بِالنَّصِّ عَلَيْهِ مِنْ أَعْظَمِ الأَدِلَّةِ الدَّالَّةِ عَلَىٰ إِنَافَتِهِ عَلَىٰ خِصَالِ الحَقِّ، وَمَزِيدِ شَرَفِهِ عَلَيْهَا، وَارْتِفَاعِ طَبَقَتِهِ عَنْهَا.

وَإِنْ كَانَ خُصُوصُهُ خُصُوصًا مِنْ وَجْهٍ؛ لِأَنَّ (الصَّبْرَ) تَحَمُّلُ مَشَقَّةِ إِقَامَةِ (الحَقِّ)، وَمَا يَعْتَرِضُ المُسْلِمَ مِنْ أَذًىٰ فِي نَفْسِهِ فِي إِقَامَةِ بَعْضِ الحَقِّ.

وَهُمَا مَعًا حِفَاظُ كُلِّ خَيْرٍ وَرَأْسُ كُلِّ أَمْرٍ.

وَالتَّخَلُّقُ بِـ(**الصَّبْرِ**)؛ مِلَاكُ فَضَائِلِ الْأَخْلَاقِ كُلِّهَا، فَإِنَّ الِارْتِيَاضَ بِالْأَخْلَاقِ الحَمِيدَةِ لَا يَخْلُو مِنْ حَمْلِ المَرْءِ نَفْسَهُ عَلَىٰ مُخَالَفَةِ شَهَوَاتٍ كَثِيرَةٍ، فَفِي مُخَالَفَتِهَا تَعَبٌ يَقْتَضِي الصَّبْرَ عَلَيْهِ حَتَّىٰ تَصِيرَ مَكَارِمُ الْأَخْلَاقِ مَلَكَةً لِمَنْ رَاضَ نَفْسَهُ عَلَيْهَا، كَمَا قَالَ **عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ**:

إِذَا المَرْءُ لَمْ يَتْرُكْ طَعَامًا يُحِبُّهُ وَلَمْ يَنْهَ قَلْبًا غَاوِيًا حَيْثُ يَمَّمَا

فَيُوشِكُ أَنْ تُلْفَىٰ لَهُ الدَّهْرَ سُبَّةٌ إِذَا ذُكِرَتْ أَمْثَالُهَا تَمْلَأُ الْفَمَا

وَكَذَلِكَ الْأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ كُلُّهَا لَا تَخْلُو مِنْ إِكْرَاهِ النَّفْسِ عَلَىٰ تَرْكِ مَا تَمِيلُ إِلَيْهِ.

وَفِي الحَدِيثِ: «**حُفَّتِ الجَنَّةُ بِالمَكَارِهِ، وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ**».

❁❁❁❁❁

﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ أَيْ:

بِالصَّبْرِ عَلَىٰ تَحَمُّلِ البَلَاءِ وَالأَذَىٰ الَّذِي لَابُدَّ أَنْ يُلَاقِيَهُ السَّائِرُ إِلَىٰ الله فِي هَذِهِ الدُّنْيَا.

وَالصَّبْرِ عَنْ مَعَاصِي الله الَّتِي تَشْتَاقُ إِلَيْهَا النَّفْسُ بِحُكْمِ الجِبِلَّةِ البَشَرِيَّةِ، وَاحْتِمَال المَكْرُوهِ مِنَ الحِرْمَانِ مِنَ اللَّذَّةِ، إِنْ كَانَ فِي نَيْلِهَا مَا يُخَالِفُ حَقًّا أَوْ مَا لَا تَأْذَنُ بِهِ الشَّرِيعَةُ الصَّحِيحَةُ الَّتِي لَا اخْتِلَافَ فِيهَا.

وَالصَّبْرِ عَلَىٰ الفَرَائِضِ وَالطَّاعَاتِ الَّتِي يَشُقُّ عَلَىٰ الإِنْسَانِ بِنَفْسِهِ البَشَرِيَّةِ أَدَاؤُهَا، وَاحْتِمَال آلَامِهَا إِذَا عَرَضَتْ بِدُونِ جَزَعٍ وَلَا خُرُوجٍ فِي دَفْعِهَا عَنْ حُدُودِ الحَقِّ وَالشَّرْعِ.

وَ**الصَّبْرُ**: قُوَّةٌ لِلنَّفْسِ تَدْعُوهَا إِلَىٰ احْتِمَال المَشَقَّةِ فِي العَمَلِ الطَّيِّبِ، وَتُهَوِّنُ عَلَيْهَا احْتِمَالَ المَكْرُوهِ فِي سَبِيلِ الوُصُولِ إِلَىٰ الأَغْرَاضِ الشَّرِيفَةِ.

وَحَقِيقَةُ (**الصَّبْرِ**) أَنَّهُ: مَنْعُ المَرْءِ نَفْسَهُ مِنْ تَحْصِيلِ مَا يَشْتَهِيهِ أَوْ مِنْ مُحَاوَلَةِ تَحْصِيلِهِ (إِنْ كَانَ صَعْبَ الحُصُولِ، فَيَتْرُكُ مُحَاوَلَةَ تَحْصِيلِهِ لِخَوْفِ ضُرٍّ يَنْشَأُ عَنْ تَنَاوُلِهِ؛ كَخَوْفِ غَضَبِ الله أَوْ عِقَابِ وُلَاةِ الْأُمُورِ) أَوْ لِرَغْبَةٍ فِي حُصُولِ نَفْعٍ مِنْهُ (كَالصَّبْرِ عَلَىٰ مَشَقَّةِ الجِهَادِ

وَالحَجِّ؛ رَغْبَةً فِي الثَّوَابِ، وَالصَّبْرِ عَلَى الْأَعْمَالِ الشَّاقَّةِ؛ رَغْبَةً فِي تَحْصِيلِ مَالٍ أَوْ سُمْعَةٍ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ).

وَمن (**الصَّبْرِ**) الصَّبْرُ عَلَى مَا يُلَاقِيهِ الْمُسْلِمُ إِذَا أَمَرَ بِالْمَعْرُوفِ مِنِ امْتِعَاضِ بَعْضِ الْمَأْمُورِينَ بِهِ أَوْ مِنْ أَذَاهُمْ بِالقَوْلِ؛ كَمَنْ يَقُولُ لِآمِرِهِ: هَلَّا نَظَرْتَ فِي أَمْرِ نَفْسِكَ، أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ.

فَطَرِيقُ الإِيمَانِ وَالاِسْتِقَامَةِ عَلَى شَرِيعَتِهِ لَيْسَ أَمْرًا هَيِّنًا؛ فَإِنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا يَحْتَاجُ إِلَى مُعَانَاةٍ وَصَبْرٍ عَلَى مُغَالَبَةِ الشَّهَوَاتِ، وَقَهْرِ دَوَاعِي الأَهْوَاءِ، وَوَسَاوِسِ الشَّيْطَانِ..

فَطَرِيقُ الحَقِّ طَرِيقٌ مَحْفُوفٌ بِالمَكَارِهِ، وَ(الصَّبْرُ) هُوَ زَادُ الَّذِينَ يَسْلُكُونَ طَرِيقَهُ، وَيَبْلُغُونَ بِهِ غَايَاتِ الفَوْزِ وَالفَلَاحِ.

وَأَمَّا تَحَمُّلُ مَشَقَّةِ فِعْلِ الْمُنْكَرَاتِ؛ كَالصَّبْرِ عَلَى تَجَشُّمِ السَّهَرِ فِي اللَّهْوِ وَالمَعَاصِي، وَالصَّبْرِ عَلَى بَشَاعَةِ طَعْمِ الخَمْرِ لِشَارِبِهَا، فَلَيْسَ مِنَ الصَّبْرِ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ التَّحَمُّلَ مُنْبَعِثٌ عَنْ رُجْحَانِ اشْتِهَاءِ تِلْكَ المَشَقَّةِ عَلَى كَرَاهِيَةِ المَشَقَّةِ الَّتِي تَعْتَرِضُهُ فِي تَرْكِهَا.

❁❁❁❁❁

وَأَفَادَتْ صِيغَةُ (التَّوَاصِي بِالحَقِّ وَبِالصَّبْرِ) أَنْ يَكُونَ شَأْنُ حَيَاةِ الْمُؤْمِنِينَ قَائِمًا عَلَى شُيُوعِ الأَمْرِ بِهِمَا دَيْدَنًا لَـهُمْ، وَذَلِكَ يَقْتَضِي اتِّصَافَ الْمُؤْمِنِينَ بِإِقَامَةِ الحَقِّ وَصَبْرَهُمْ عَلَى المَكَارِهِ فِي مَصَالِحِ الْإِسْلَامِ وَأُمَّتِهِ؛ لِمَا يَقْتَضِيهِ عُرْفُ النَّاسِ مِنْ أَنَّ أَحَدًا لَا يُوصِي غَيْرَهُ بِمُلَازَمَةِ أَمْرٍ إِلَّا وَهُوَ يَرَى ذَلِكَ الْأَمْرَ خَلِيقًا بِالْمُلَازَمَةِ، إِذْ قَلَّ أَنْ يُقْدِمَ أَحَدٌ عَلَى أَمْرٍ بِحَقٍّ هُوَ لَا يَفْعَلُهُ، أَوْ أَمْرٍ بِصَبْرٍ وَهُوَ ذُو جَزَعٍ؛ فَكَيْفَ تَكُونُ بِنَفْسِكَ غَيْرَ مُتَحَلٍّ بِهَا؟ وَإِلَّا دَخَلْتَ فِيمَنْ يَقُولُ وَلَا يَفْعَلُ؛ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾ (الصَّفّ/ ٢، ٣)، وَقَدْ قَالَ اللهُ

تَعَالَىٰ تَوْبِيخًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ (الْبَقَرَة/ ٤٤).

❁❁❁❁❁

وَقَدِ اشْتَمَلَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ عَلَىٰ إِقَامَةِ المَصَالِحِ الدِّينِيَّةِ كُلِّهَا؛ فَالعَقَائِدُ الْإِسْلَامِيَّةُ وَالْأَخْلَاقُ الدِّينِيَّةُ مُنْدَرِجَةٌ فِي (الحَقِّ)، وَالْأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ وَتَجَنُّبُ السَّيِّئَاتِ مُنْدَرِجَةٌ فِي (الصَّبْرِ).

❁❁❁❁❁

وَ(التَّوَاصِي بِالصَّبْرِ): أَنْ يُوصِيَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِهِ وَيُحِثُّهُ عَلَيْهِ، وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ نَافِعًا مَقْبُولًا إِلَّا إِذَا كَمَّلَ المَرْءُ نَفْسَهُ بِهِ؛ وَإِلَّا صَدَقَ عَلَيْهِ قَوْلُ أَبِي الأَسْوَدِ الدُّؤَلِيّ:

يَـا أَيُّهَـا الرَّجُـلُ المُعَلِّـمَ غَيْـرَهُ هَـلَّا لِنَفْسِـكَ كَـانَ ذَا التَّعْلِيمُ

تَصِفُ الدَّوَاءَ لِذِي السَّقَامِ وَذِي الضَّنَى كِيمَـا يَصِحُّ بِـهِ وَأَنْـتَ سَقِيـمُ

وَفِي جَعْلِ (التَّوَاصِي بِالصَّبْرِ) قَرِينًا (لِلتَّوَاصِي بِالحَقِّ) دَلِيلٌ عَلَىٰ عَظِيمِ قَدْرِهِ وَفَخَامَةِ شَرَفِهِ، وَمَزِيدِ ثَوَابِ الصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا يَحِقُّ الصَّبْرُ عَلَيْهِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ (البَقَرَة/ ١٥٣).

وَأَيْضًا (التَّوَاصِي بِالصَّبْرِ) مِمَّا يَنْدَرِجُ تَحْتَ (التَّوَاصِي بِالْحَقِّ)، فَإِفْرَادُهُ بِالذِّكْرِ وَتَخْصِيصُهُ بِالنَّصِّ عَلَيْهِ مِنْ أَعْظَمِ الْأَدِلَّةِ الدَّالَّةِ عَلَىٰ إِنَافَتِهِ عَلَىٰ خِصَالِ الْحَقِّ، وَمَزِيدِ شَرَفِهِ عَلَيْهَا، وَارْتِفَاعِ طَبَقَتِهِ عَنْهَا.

فَتَخْصِيصُ هَذَا التَّوَاصِي بِالذِّكْرِ مَعَ انْدِرَاجِهِ تَحْتَ (التَّوَاصِي بِالحَقِّ)؛ لِإِبْرَازِ كَمَالِ الِاعْتِنَاءِ بِهِ، أَوْ لِأَنَّ الأَوَّلَ عِبَارَةٌ عَنْ رُتْبَةِ العِبَادَةِ الَّتِي هِيَ فِعْلُ مَا يَرْضَى بِهِ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وَالثَّانِي عَنْ رُتْبَةِ العُبُودِيَّةِ الَّتِي هِيَ الرِّضَى بِمَا فَعَلَ اللهُ.

فَإِنَّ الْمُرَادَ بِـ(الصَّبْرِ) لَيْسَ مُجَرَّدَ حَبْسِ النَّفْسِ عَمَّا تَتَشَوَّقُ إِلَيْهِ مِنْ فِعْلٍ أَوْ تَرْكٍ؛ بَلْ هُوَ تَلَقِّي مَا وَرَدَ مِنْهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بِالْجَمِيلِ وَالرِّضَى بِهِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا.

❁❁❁❁❁

﴿ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ أَيْ: عَلَىٰ الْمَصَائِبِ وَالْأَقْدَارِ، وَأَذَىٰ مَنْ يُؤْذِي مِمَّنْ يَأْمُرُونَهُ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَهُ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَعَلَىٰ كُلِّ مَا يَبْلُو اللهُ بِهِ عِبَادَهُ. وَعَنِ الْمَعَاصِي الَّتِي تَشْتَاقُ إِلَيْهَا النَّفْسُ بِحُكْمِ الْجِبِلَّةِ الْبَشَرِيَّةِ، وَعَلَىٰ الطَّاعَاتِ الَّتِي يَشُقُّ عَلَيْهِ أَدَاؤُهَا.

❁❁❁❁❁

وَاسْتَدَلَّ بَعْضُ الطَّوَائِفِ بِالآيَةِ عَلَىٰ أَنَّ مُرْتَكِبَ الكَبِيرَةِ مُخَلَّدٌ؛ لأَنَّهُ لَمْ يَسْتَثْنِ مِنَ الْخُسْرَانِ ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ إلخ.

وَالرَّدُّ عَلَىٰ أَنَّ غَيْرَ الْمُسْتَثْنَىٰ فِي (خُسْرٍ) لَا مَحَالَةَ؛ إِمَّا بِالْخُلُودِ إِنْ مَاتَ كَافِرًا، وَإِمَّا بِالدُّخُولِ فِي النَّارِ إِنْ مَاتَ عَاصِيًا لَمْ يُغْفَرْ لَهُ، وَإِمَّا بِفَوَاتِ الدَّرَجَاتِ العَالِيَةِ إِنْ غَفَرَ.

❁❁❁❁❁

أَمَّا الْخُسْرَانُ بِالْكُفْرِ؛ فَكَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾ (الزُّمَر/ ٦٥).

وَقَوْلِهِ: ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَـٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ (الأَنْعَام/٣١)، أَيْ: لِأَنَّهُمْ لَمْ يَعْمَلُوا لِهَذَا اللِّقَاءِ، وَقَصَرُوا أَمْرَهُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا فَضَيَّعُوا أَنْفُسَهُمْ، وَحَظَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ.

وَأَمَّا الْخُسْرَانُ بِتَرْكِ الْعَمَلِ، فَكَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (الأَعْرَاف/ ٩)، لِأَنَّ الْمَوَازِينَ هِيَ مَعَايِيرُ الْأَعْمَالِ؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾ ﴾ (الزَّلْزَلَة/ ٧، ٨).

وَمِثْلُهُ: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾﴾ (النِّسَاء/ ١١٩)، لِأَنَّهُ سَيَكُونُ مِنْ حِزْبِ الشَّيْطَانِ؛ ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾ (المُجَادَلَة/ ١٩)، أَيْ بِطَاعَتِهِمْ إِيَّاهُ فِي مَعْصِيَةِ الله.

وَأَمَّا الخُسْرَانُ بِتَرْكِ التَّوَاصِي بِالحَقِّ فَلَيْسَ بَعْدَ الحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ، وَالحَقُّ هُوَ الْإِسْلَامُ بِكَامِلِهِ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ (آل عِمْرَان/ ٨٥).

وَأَمَّا الخُسْرَانُ بِتَرْكِ التَّوَاصِي بِالصَّبْرِ وَالْوُقُوعِ فِي الهَلَعِ وَالْفَزَعِ؛ فَكَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾﴾ (الحَجّ/ ١١).

❁❁❁❁❁

وَقَالَ **فَخْرُ الدِّينِ الرَّازِيُّ** (ت ٦٠٦هـ):(١)

فَاعْلَمْ أَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا بَيَّنَ فِي أَهْلِ الِاسْتِثْنَاءِ أَنَّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ وَعَمَلِهِمُ الصَّالِحِ خَرَجُوا عَنْ أَنْ يَكُونُوا فِي خُسْرٍ وَصَارُوا أَرْبَابَ السَّعَادَةِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُمْ تَمَسَّكُوا بِمَا يُؤَدِّيهِمْ إِلَى الْفَوْزِ بِالثَّوَابِ وَالنَّجَاةِ مِنَ الْعِقَابِ وَصَفَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَدْ صَارُوا لِشِدَّةِ مَحَبَّتِهِمْ لِلطَّاعَةِ لَا يَقْتَصِرُونَ عَلَى مَا يَخُصُّهُمْ بَلْ يُوصُونَ غَيْرَهُمْ بِمِثْلِ طَرِيقَتِهِمْ لِيَكُونُوا أَيْضًا سَبَبًا لِطَاعَاتِ الْغَيْرِ كَمَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ عَلَيْهِ أَهْلُ الدِّينِ، وَعَلَى هَذَا الوَجْهِ قَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾ (التَّحْرِيم/ ٦)، فَالتَّوَاصِي بِالْحَقِّ يَدْخُلُ فِيهِ سَائِرُ الدِّينِ مِنْ

(١) في تَفْسِيرِهِ "مَفَاتِيح الغَيْب = التَّفْسِير الكَبِير" (٣٢/ ٢٨١، ٢٨٢).

عِلْمٍ وَعَمَلٍ، وَالتَّوَاصِي بِالصَّبْرِ يَدْخُلُ فِيهِ حَمْلُ النَّفْسِ عَلَىٰ مَشَقَّةِ التَّكْلِيفِ فِي الْقِيَامِ بِمَا يَجِبُ، وَفِي اجْتِنَابِهِمْ مَا يَحْرُمُ إِذِ الْإِقْدَامُ عَلَى الْمَكْرُوهِ، وَالْإِحْجَامُ عَنِ الْمُرَادِ كِلَاهُمَا شَاقٌّ شَدِيدٌ، وَهَاهُنَا **مَسَائِل**:

الْمَسْأَلَةُ **الْأُولَى**: هَذِهِ الْآيَةُ فِيهَا وَعِيدٌ شَدِيدٌ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ تَعَالَىٰ حَكَمَ بِالْخَسَارِ عَلَىٰ جَمِيعِ النَّاسِ إِلَّا مَنْ كَانَ آتِيًا بِهَذِهِ الْأَشْيَاءِ الْأَرْبَعَةِ، وَهِيَ الْإِيمَانُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ وَالتَّوَاصِي بِالْحَقِّ وَالتَّوَاصِي بِالصَّبْرِ، فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَىٰ أَنَّ النَّجَاةَ مُعَلَّقَةٌ بِمَجْمُوعِ هَذِهِ الْأُمُورِ وَإِنَّهُ كَمَا يَلْزَمُ الْمُكَلَّفَ تَحْصِيلُ مَا يَخُصُّ نَفْسَهُ فَكَذَلِكَ يَلْزَمُهُ فِي غَيْرِهِ أُمُورٌ، مِنْهَا الدُّعَاءُ إِلَى الدِّينِ وَالنَّصِيحَةُ وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَأَنْ يُحِبَّ لَهُ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ، ثُمَّ كَرَّرَ التَّوَاصِيَ لِيُضَمِّنَ الْأَوَّلَ الدُّعَاءَ إِلَى اللهِ، وَالثَّانِيَ الثَّبَاتَ عَلَيْهِ، وَالْأَوَّلُ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالثَّانِي النَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ: ﴿وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ (لُقْمَانَ/ ١٧)، وَقَالَ **عُمَرُ**: رَحِمَ اللهُ مَنْ أَهْدَىٰ إِلَيَّ عُيُوبِي.

الْمَسْأَلَةُ **الثَّانِيَةُ**: دَلَّتِ الْآيَةُ عَلَىٰ أَنَّ الْحَقَّ ثَقِيلٌ، وَأَنَّ الْمِحَنَ تُلَازِمُهُ، فَلِذَلِكَ قَرَنَ بِهِ التَّوَاصِيَ.

الْمَسْأَلَةُ **الثَّالِثَةُ**: إِنَّمَا قَالَ: وَتَواصَوْا وَلَمْ يَقُلْ: وَيَتَوَاصَوْنَ لِئَلَّا يَقَعَ أَمْرًا بَلِ الْغَرَضُ مَدْحُهُمْ بِمَا صَدَرَ عَنْهُمْ فِي الْمَاضِي، وَذَلِكَ يُفِيدُ رَغْبَتَهُمْ فِي الثَّبَاتِ عَلَيْهِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ.

الْمَسْأَلَةُ **الرَّابِعَةُ**: قَرَأَ أَبُو عَمْرٍو: (بِالصَّبْرِ) بِشَمِّ الْبَاءِ شَيْئًا مِنَ الْحَرْفِ، لَا يُشْبَعُ؛ قَالَ أَبُو عَلِيٍّ: وَهَذَا مِمَّا يَجُوزُ فِي الْوَقْفِ، وَلَا يَكُونُ فِي الْوَصْلِ إِلَّا عَلَىٰ إِجْرَاءِ الْوَصْلِ مَجْرَىٰ الْوَقْفِ، وَهَذَا لَا يَكَادُ يَكُونُ فِي الْقِرَاءَةِ، وَعَلَىٰ هَذَا مَا يُرْوَىٰ عَنْ سَلَّامِ بْنِ الْمُنْذِرِ أَنَّهُ قَرَأَ، (وَالْعَصِرْ) بِكَسْرِ الصَّادِ؛ وَلَعَلَّهُ وَقَفَ لِانْقِطَاعِ نَفَسٍ أَوْ لِعَارِضٍ مَنَعَهُ مِنْ إِدْرَاجِ الْقِرَاءَةِ، وَعَلَىٰ هَذَا يُحْمَلُ لَا عَلَىٰ إِجْرَاءِ الْوَصْلِ مَجْرَىٰ الْوَقْفِ.